

من أعلام يعمنون هم في الظلمات مشكاة وفي الجاهل والمعثر هداة وما على منفق جهده
من جناح ولا إلى تأنيبه من سبيل.

عود عنى بدء.

قلنا أن الاعتقاد بالجان قلنا خنت منه أمة في غابر الأزمان ومصداقاً لذلك نقول الآن.
ورد في ميثولوجيا الهنود أن أرواحاً شريرة اسمها رقصاشة ومعنى هذا الاسم الجيايرة
خنقت قبل الجو والحيوانات وهي ترصد الأجام والمقابر وتنتهي بإثارة الموتى من أجدانهم
والتحرش بهم. تأكل لحوم الأحياء من البشر وتشرب دماءهم وتتخذ لها صوراً مختلفة
وأشكالاً متباينة ثم هي لا تزال حاضرة عند تقدمه القرابين وذبح الضحايا للآلهة لكي
تفسد عنى الناس شعائرهم وتعري المعبودات عنى تلك القرابين ورتل مدميها: من أجل
ذلك يعد الهنود أشد ضرراً عنى البشر من سائر الجن.

وقد ذكر في الكتب السانسكريتية القديمة الحفوظة في هياكل الصين وكوريا وسيلان
وسائر أمهات المدن المنتشرة في الشرق الأقصى الغاصة بأتباع برهما وبوذة من ذوي
الجنس الأصفر أن النساك وخدمة الدين طالما استجدوا القوى العنوية لنجاة من شرور
هذا الصنف الغادر من الجن الكثير العدد وهو مع ذلك لا يزال يزيد نمواً وانتشاراً بزيادة
عداد من يموتون من الأثمة أصحاب الكباثر لأن أرواح هؤلاء تكون إلى زمن من نوع
الرقصاشة وأشهر هذه الفئة الباغية المنقسمة إلى فرق ومراتب إنما هي رافانا.

وليتك تدري ما رافانا إنما هي روح شرير زائد القحة والجرأة كثير المطامع والشهوات
حتى أنه زين له في بعض الأزمنة أن يخضع الأرض وما عليها والهاوية ومن فيها
والسناوات ومن فوقها إلى حكمه وسنطانه ويجعل الكيان المطلق عبداً خادماً لرغائبه

ومآربه ونوعاته فتنادى جوراً وعسفاً وزاد بغياً وطغياناً حتى أنت من حيفه الأرض
 وشكت ظنمه الأفلاك واستولى الرعب على قنوب المعبودات في أخذارها والمنوك في
 عروشهم وكان موطن هذا الجني الخبيث في ذلك الزمان لافكا عاصمة جزيرة سيلان.
 فساء وشنو العظيم هذا الأمر الجتل ورأى أن يتجمد ثانية لينقذ الأكران ومعبوداتها من
 شر هذا الطاغية ويرد إلى المخلوقات طنائيتها وسلامها فجمد في الجهة المقابلة في الهند
 في

صورة راما تشندر ابن داسرتا منك أبوديا من امرأته كالسيا وبعد أن اتحد مع سوغريفا
 منك طائفة القروود على الإيقاع برفانا مضيا إلى الأرخيل الفاصل بين جزيرة سيلان
 والبر والتقى هناك جسراً من الصخر اجتازه إلى الجزيرة ثم باشرا القتال مع رافانا فدم
 ينبث الخبيث أمام المعبود المتجمد وحنيفه!!! فسقط بين أيديهما هالكاً غير مأسوف
 عنيد.

والرومانيون يقولون أنه يوجد عذراء من الجن كانت تقيم في غابة اسمها أريسيا على
 مقربة من رومية عاصمة الرومان وتدعى تلك العذراء إيجيريا وأن أحد ملوكهم توما
 بوميلوس اتخذها له زوجة فكانت تساعده على قهر الأمم المتوحشة وإدخالها في ربة
 الطاعة له والانضواء على عرشه وتشاركه في حل ما أعضل عنه من المشكلات. فلما
 مات زوجها جزعت عليه أشد الجزع ولجأت إلى تلك الغابة معتزلة حيث كانت تجلس في
 حضيض جبل ذارفة دموعاً سخية بلا انقطاع فأحزن حالها ديانا إلهة الصيد فرأت أن
 تحولها إلى عين ماء نضاجة لا ينضب ينبوعها فسميت عندئذ عذراء العيون وشيد بجوارها
 هياكل للعبادة كانت النساء الرومانيات يقصدونها بندورهن الشبينة في مواسم معنومة

متخذات لها أعياداً يحتفلن بها احتفالاً كبيراً لأنها كانت تحفظهن عند الولادات ويصون مواليدهن من سائر الجن. ولمدينة رومية جنى خاص أقام له قدماء الرومانيين تمثالاً من ذهب.

والجرمانيون ومنهم البروسيون وسائر الألمان وكثيرون من التابعين لنعرش النسبوي يزعمون أن لنياه جنأ يطلق عليه اسم اليفنة ويدعوها الإنكليز مرميده وأهل شمالي أوربا نكسن.

قال سكان سواحل البنطيك أنها تظهر عنى شكل الخيل عنى مقربة من ثغور البحار وتداعب من يخرجون القمراء للزهوة والسرور في تلك الشواطئ وكثيراً ما أخافهم.

أما الألمانيون فيقولون أنها تقيم في فر الجي وأنها أظرف من جن بحر البنطيك وقد تخرج أحياناً من الماء في ليالي الشتاء وتقصد النار التي يتركها رعاة المواشي لتستدفئ بها. وقد طالما نظرت هناك بهيئة نساء جميلات مسترات بشبه براقع لمن وجوه زهر وشعور شقر تسرسل عنى أكتافهن. وقد يعشق بعضهن الرجال فيخضعن الحب لمن كان وفيماً منهم ويساعدنه في ميادين الحرب ويقين شخصه بنفوسهن من سهام العدو ولا تنفك إحداهن مولعة بمن قوى مرافقة له ساهرة عنى مصنحته وراحته متحملة معه ما يكابده من برحائه وضرائه حتى الموت. ولكن إذا خائفاً ولو مرة ذهبت به إلى شاطئ البحر أو إلى ضفة النهر وجذبتته بمتهى قوتها إلى النجاة فتصيته غرقاً!!! وهي عنى ما يقولون ذات صوت غريد مطرب هو- في زعمهم- مصدر حفيف الغابات وخرير الأنهار الذي يؤنس الحزين ويسني الغريب وكان القدماء من أهالي أوربا الشمالية إذا أرادوا استئالة تنك الجن طرحوها في البحار والأنهار ثمناً وأزهاراً وذهباً ولؤلؤاً وطرراً وطيباً استعطافاً لها وقد

وجدوا في بحيرة تولوز أشياء كثيرة مما كان يستعطف بها سكان فرنسا القديمة تلك الجنيات الحسان النواتي يشهن في بعض أمورهن بنات الماء النواتي ذكرهن الدميري في كتابه حياة الحيوان.

ومن أغرب ما رواه المؤرخون أن سبيون الروماني لما فتح مدينة تولوز وجد في بحيرتها من الذهب ما وزنه مئة ألف ليرة ومن الفضة مثله فاستأثر بها.

وقد تحقق أن العالين القدماء أجداد سكان جنوبي فرنسا الآن كانوا يرفعون تلك الجنيات الحسان إلى مصاف الآلهة ولذلك اشتد حنق التولوزيين على من خرق حرمة بحيرتهم سالباً حنهن وكنوزهن كما ألمعنا وربما كان هن في بلادهن غير الأسماء الثلاثة التي ذكرناها قبل.

أما المكندنافيون وهم أهل أسوج أو السويد ونروج وهولاندة أو الفننك والدينيرك فيعتقدون بوجود جن اسمها ألفة أو الفر وهي حاذقة لبية ذكية عالمة وتقسم عندهم إلى فتنين.

إحدهما تعرف بالجن الصالحة ويقال لها جن النار أو جن النور تقيم في بلاد الغيم التي يتولاها صاحب الشمس لها وجوه تنع كالصبح وعيون أجمل من الكواكب وشعر ذهبي يروق مراه لناظرين والثانية تعرف بالجن الهائلة وتسمى عندهم سفورت الفار وهي عدوة للنور وأشد سواداً من الزفت ذات منظر كريبه وتقاطع شعبة وأعضاء مشوهة ولا تسكن إلا في باطن الأرض.

وأهل القرون المتوسطة من سكان هذه الممالك الكندنافية كانوا يزعمون أن هذه الجن الأرضية تخطف أطفالاً من أسرتها وإذا أحببت إحدهما رجلاً ذهبت به إلى موطنها تنفذ

بمداعبته ولا تدع له سبيلاً إلى تركها والعودة إلى بلاده: وهم يوقنون كل اليقين أن منكنهم خطفت السيد توماس السيدون الملقب بالشاعر إلى حماها وحجرت عليه في صرح لها سبع سنين كان فيه تمثال غرامها وكعبة هيامها وهي على ما يرتأون لطيفة المعاني حمسة الطلعة تسج لها أقصة وحللاً من نور القمر وتعم بعنامة في أعلاها جرس وتحتذي برجلها الكافور بتين زجاجاً رقيقاً نقياً شفافاً فإذا عثر إنسان عند انفلاق الصبح على حذاء أو جرس مما تنبسه تلك الجنيات الرائعات الخاسن منقى على العشب نال من التي فقدته كل ما يتمناه.

وهي تشتو غالباً في كهوف الجبال تعيش فيها كساتر الناس وتصرف الوقت بمطالعة الأشعار وأناشيد الآلهة وكتب التاريخ وبتطريق الذهب والفضة والأخبار عن مستقبلات الشؤون متخذة لها حلياً من الياقوت والزمرد وكبار اللآلي. ومتى بدت تباشر الربيع تزايل تنك الكهوف والمغاوير متجولة في جوانب الجبال استنشاقاً للهواء العطر والنسيم البليل. وقد تتسلق الشجار لحطف منها الأزهار والشار أو لتراقب من يمر على مقربة منها حتى إذا أقبل الليل تجمع في الحقول متماسكات الأيدي كالحلقة التي تؤلفها نساؤنا ليجلن العروس ثم تأخذ في الرقص والغناء في ضوء القمر. وقد ترعى ماشيتها على ضفاف الأهر ولا تزال تلك حالها حتى يعاودها الشتاء.

ومع أن الألفة غير منظورة فاللودون أيام الأحاد يمكنهم أن يروها. وهي على عناقها وحماها ولطف بيتها لها من القوة ما يمكنها حمل أثقل الصخور وأكبرها حجماً ماشية به مسافات طويلة وإذا لمست بيتاً هزته وزعزعته من أسسه ولو شاءت لحفت بيدها رجلاً وسارت به ركضاً ولا تبالي. وهي تحب غالباً شجر الإنسان والزيزفون والخور الرومي

فمن أحب أن يراها من مواليده يوم الأحد يقصد من تلك الأشجار ما كان منها في سفوح الجبال يجدها تغني على قيثارها العازف تحت رواق ظلها الوارف.

وكان لها في بلاد الإنكليز وسكوتلاندة منك ومنكة وكانت جزيرتا سترن وروجن في بحر البنطين تحت سطاها وقد شوهد هذا الملك يوماً في مركبة يجرها أربعة أفراس ويستدلون على تجوله في منكته المترامية الأطراف بصهيل الخيل وسواد الماء والضوضاء التي يحدثها أعوانه في طبقات الهواء.

واليونانيون القدماء يقولون أن أعينور منك فينيقية تزوج بالجنية ميني فولدت له أوروبا فنشأت ذات جمال فتان وبياض ناصع فشغف بها المشتري وتمثل لها بصورة ثور وتزلف إليها كثيراً حتى ركبته معاً بنين قياده فأسرع وهي على متنه نحو البحر وسبح بها إلى جزيرة كريت وهناك اتخذها زوجة فأولدها خمسة صبيان وثلاث بنات وكلهم ابتوا مدناً وأنشوا قبائل وعلى هذا يكون الكريتيون من سلالة الثيران والجن فلا عجب إذا كانت نيران فتهم لا تنطفئ وحرركات ثوراتهم لا تسكن.

والروسيون الأقدمون يزعمون أن الفامبيره فريق من الجن يسكنون القبور وهم يثرون ليلاً في المدافن. متفرقين على منازل الأحياء حال نيامهم فينتصون دماءهم. وإن الديموفوي جني البيوت يتراءى للنساء حال انفرادهن وإن في الأثمار عفاريت تدعى فوريانوي وفي الغابات أبالسة اسمها الياسنك والسلافيون يدعون أن لنجن إلهاً خاصاً يسمنونه وتشرنو بوغ أي الإله السود ولنبيشر إلهاً آخر اسمه بياليوغ أي الإله الأبيض.

وأهل جبال البريني أو البرانس يعتقدون أن الجن مقبضة في الغيوم التي تغطي ذروات
جبالهم وعنى ضفاف الأماز الحافلة بالأشجار ولهم فيها أقاصيص طويلة وروايات غريبة
لا يحتمل المقام سردها أو استيفاءها.

وأهالي جزائر منديف يقولون أنه كان يجيئهم في وقت معلوم من ناحية البحر جني كأنه
مركب مملوء بالقناديل فلا ينجو من شره إلا بإعطائه فتاة بكرًا يتركونها له في بيت
الأصنام ثم يصبحون فيجدونها منهوكة ميتة فاتفق أن زار مدينتهم رجل صالح يدعى أبو
البركات الأبربري فلما حان زمان مجيء الجني أخذت النساء يكنين ويندين فسألن عن
السبب فقالت له عجوز منهن أن لها بنتاً وحيدة بارعة في الجمال أصابتها القرعة بحسب
القاعدة الجارية في المدينة وستكون في الغد ضحيةً للجني فقال أنا أنوب عنها ثم ذهب إلى
بيت الأصنام متخفياً وأخذ يتلو القرآن العزيز فلما سمع الجني تلاوته غاص في البحر ولم
يعد بعد.

قال ابن بطوطة في رحلته إن هذه الحادثة كانت سبباً لدخول أهالي تلك الجزائر في
الإسلام وهي يد كبرى تعد لأبي بكرات المشهور بصلاحه عنى أولئك الوثنيين.
واليونانيون يثبتون أن عذارى من الجن اعتنيت بتربية جوبيتر وهو طفل فأهدى إليهن قرن
الخصب وهو أحد قرني العذرة التي رضع لبنها عندهن.
وهم يقسمون الجن إلى ثلاث رتب يرفعون الأولى منها إلى مقام المعبودات وجمها الأعمى
عندهم أجينوس بالنسان الروماني القديم وهو شخص زفس أو جوبيتر.

وهي تقسم إلى فئات أو قبائل منها البانة والفونة والسائيرة والنيففة الرتبة الثانية توابع كل شعب وكل مدينة وكل محنة وهم يحقدون أن مؤلفي هذه الرتبة يموتون ويولدون كسائر الأحياء غير أن حياقتهم تستغرق ألوفاً من السنين.

والرتبة الثالثة توابع كل شخص بغيره وهم الذين يتولون أمور الأفراد ويؤثرون في جميع أحوالهم من معاشهم وعواطفهم وحوادثهم وأمراضهم. ولئنساء توابع خاصة يسكنون جنون.

قال سرفيوس متى ولد الإنسان بسخر له تابعان من الجن أحدهما يرشده إلى ما به الخير والآخر يجبل به إلى طرق الشر.

وقال أبولوس إن النفس البشرية ذاتها تتحول بعد نجاحها بالموت من هيولاها إلى الجن فإن كانت حياة صاحبها صالحة دخلت في عداد الجن الأنيس وبقيت في البيت لحماية ساكنه وإن كانت شريرة سميت لارفة أي عقرتاً أو جنياً خبيثاً فلا تستقر في مكان واحد ويكون دأبها الإخافة والتهويل وإلقاء الرعب بين البشر والوسوسة والتزع في الصدور إمالة بأربابها إلى الإضرار بأوغوسطوس مادام تابعه يحبه ويدود عن حوضه.

وكان اليونان والرومان عن بكرة أبيهم يقدمون في أعياد مواليدهم نذوراً لنصالحين من تابعهم زهراً ومخوراً وخمراً يضعونها على ضفاف الجداول وتحت ظلال الأشجار في الغابات تكرمه وزلفى ولو استوفينا كل ما ورد عن هاتين الأمتين في أعصرهما الخرافية مما يتعلق بموضوعنا لطلال بنا المطال وضائق عن استيعابه الرسائل بيد أنا فيما ذكرناه عنهما غنى وكفاية.

أما الفرس فيعتقدون أنه يحكم العالم روحان متضادان متخاصمان أحدهما صالح وهو أورمزد والآخر شرير أهرمن وهذان الروحان في خصام دائم ومن غلبة الواحد على الآخر ينتج تداول الخير والشر والنور والظلام والليل والنهار كل يوم.

وما الجن إلا خلقة أهرمن وحاشيته وسيأتي يوم يظهر فيه ثلاثة أنبياء يفتنون جيوش أهرمن ويتفتنون أعماله فلا يبقى جني على الأرض فيعيش الناس في سعادة كاملة وسلام دائم يتكلمون بلسان واحد ويعيشون متحدين على غط واحد ووتيرة واحدة وهؤلاء الثلاثة أنبياء سيولدون من نطفة محفوظة في ينبوع ماء صغير لم يهتد إلى مكانه بعد.

وهذا الاعتقاد الثاني مستفيض في الشرق منذ القدم حتى أنه يظهر بالتبع والاستقراء التقليدي إنه كان على عهد عيلام بن سام بن نوح الذي منه تشعب الفرس وقد سرى إلى عدة شعوب ونحل وبدع في القرون الأولى وأصبح ركناً بني عليه مذهب الماني الموسوس الفارسي كما لا يغرب على كل مطع على تاريخ هذه الأمة.

وقد زعم الفرس أيضاً أن للجن ملكة خاصة اسمها عندهم جنستان أي بلاد الجن ويقولون أنها واقعة في الطرف الغربي من أفريقية وقد طالما سماها شعراءهم بأرض المردة والعفاريت: أما العبرانيون والفينيقيون والكندانيون القدماء فيقولون أن الجن تدخل في البشر فتبليهم بالجنون وهيب تمكن الأرض وتترأى للناس بهينات مختلفة حتى أنها تتنيس بأشكال الحيوانات ويستخدمها السحرة والعرافون للأنباء بالمغيبات وكشف المستورات وكل هؤلاء الأمم يعتقدون كالعرب بالقرينة والتابعة والكهانة والسحر ومن يرجع إلى تواريخهم يجدها طافحة بأخبار وأقاويص تدل على رسوخ هذا الاعتقاد فيهم منذ قروهم الأولى شأنهم في ذلك شأن سائر الأمم الشرقية سواء.

أما المصريون فقد كانوا يهبون جني نهر النيل في كل عام عروساً حسناً من فتياتهم استرضاء له واستمداداً لفيضه ويجعلون الحيات والحرة وغيرها آلهة وأنصاف آلهة متخذين العجل آيس أعظم معبود لهم بناء على كون الزراعة ركن معاشهم وقوام رزقهم في بلادهم فهم يكرمونه ويخصونه بأفضل أنواع العبادات ليند الثيران من سائر بني جنسه بقوة من عنده تكفيهم مؤونة الحرث والفلاحة التي لم يجدوا إليها سبيلاً في تلك الأزمنة إلا بتسخير البقر.

ومع أن الأقدمين منهم كانوا في طليعة غيرهم من الأمم علماً ومدنيةً وتقديماً كانت عقائدهم الخرافية في غاية السخف وقد زادهم فيها استرسالاً اجتياح اليونان ثم الرومان لبلادهم واستيلاؤهم عليها ردها من الدهر إذ قد أضيف ما عند هؤلاء من مضحكات العقائد ومبكماتها إلى ما عندهم منها حتى أصبحت مزيجاً جامعاً ما لم تجعده أمة قبل ولا بعد.

هذا مجمل ما ورد متفرقاً في أسفار السلف وأساطيرهم من كل أمة ونحلة برهاناً على كون الاعتقاد بالأرواح الخفية كالجن والعفاريت والمردة إنما هو مرافق حياة البشر في قروهم الأولى من كل جيل وجنس ومذهب ولكن على أنحاء متضاربة ووجوه متباينة واختلاف كثير في وصفها وتكييفها وتعيين قوامها وطبائعها وتحديد ماهيتها ومراتب تأثيرها في أعمال الخلق وشؤونهم إلى غير ذلك مما لم يقع عليه الإجماع التام بين شعب وشعب وأمة وأمة.

ومما يجب التنبيه إليه أنه قام في كل صقع وبين كل قوم رجال أفذاذ من أبناء العصور الغابرة قاننين بما يقوله اليوم أكثر علماء الغربيين وبعض الشرقيين من أن هذه

الأرواح الضارة لا وجود لها إلا في مخيلات الناس وأوهامهم يعظم على تصورهما
والجزم بوجودها ما يتعاورهم من الأماهي والمخاوف والانفعالات المتناقضة فيما يعرض لهم
من أحوال هذه الحياة الدنيا الكثيرة الكوارث والشجون مضافاً إلى ذلك ما يتوارثونه من
عقائد الآباء ويتناقضونه خلف عن سف من ترهات وعجائزيات قد أبان على تجنيها في
أذهانهم ما أسدله الجهل على بصائرهم من كثيف الحجب في أعصر الظلمات ولاسيما
أثناء القرون الوسطى التي استحكت فيها المنازعات الدينية والأحن المذهبية مسيبة عن
أطباع الملوك حتى ألبست الأرض أرجواناً من الدم.

فما بدأ يفجر في أفق العالم الغربي نور العلم الصحيح المبني على الثبت والاستقرار
الحسي حتى أخذ يتقنص في تلك الأصقاع ظل الاعتقاد بوجود أرواح تتأثر بني الإنسان
متداخلة في أمورهم ومصايرهم فاعنة في شواعرهم وهواجسهم ضاغطة على حركاتهم
وسكناتهم في معاشهم ومرتقاتهم وكان ذلك في أواسط القرن الثامن عشر حتى إذا
أشرف محيا القرن العشرين من نافذة الدهر تلاشى أو كاد مذهب من يرى أن في العالم
اغجوب قوة تناوى إرادة الله وتناهض عباده كما يزعم الثنائيون من الأمم ومعظم
المتدينين من الفلاسفة والمفكرين في أيامنا هذه يذهبون إلى أنه قبل انقضاء هذا القرن قد
لا يبقى على وجه البيطة من يصدق بوجود فاعل فوق الطبيعة غير الحق عز وجل وهو
سبحانه أعلم بما يتخرون.

دمشق:

سليم عنجوري.

هبة أبي رباح

لم يكتب أحد من المتقدمين من علماء العرب وغيرهم في تاريخ هذه الحمة أو موقعها أو وصفها وصفاً عندياً مع ما لها من المكانة التاريخية والطبيعية كما أنه ليس للباحثين المتأخرين من الغربيين والسوريين مقال في هذا الباب يرجع إليه أو شرح يستند عليه. ولقد كان بودي أن أفق عنى كنة من هذا القبيل لتكون لي دليلاً في سبيل ما أريد تسطره وحنة تؤيد ما أعنده في هذا الموضوع وأروم تحيره إلا أنني لم أجد كتاباً يذكر ما أردت وينبئ ما رمت فنا وسعي إلا أن أعود إلى ما أعنده عن هذه الحمة بالاختبار مجدداً في تطبيقه على الفن الحديث ومستلداً على تاريخه بما عثرت عليه فيها من الأبنية والآثار القديمة بقدر الإمكان.

مركزها الجغرافي—أبورباح جبل من كورة حمص من عمل ناحية القريتين يبعد عن الأولى أربعين ميلاً إلى جهة الشرق وعن الثانية تسعة أميال إلى الشمال الغربي يشرف على ضيعة يقال لها الغنتر من أملاك عبد الجيد آغا سويدان مدير ناحية حسية (أيكى قبوئي) الحالي ورئيس أسرة سويدان المعروفة ويحده من الشمال أراضي (الشومرية) وهي جبال قل فيها المنبسط ذات تربة جيدة وأرض خصبة منبثة وفيها بعض القرى المتحدثة وكانت من أملاك السطان السابق ويسونها الآن (الأملاك المدورة) ومن شماله أيضاً البنعاس وهي كورة من كور حمص فيها حرج من شجر البطم يبلغ طوله تسعين ميلاً من الغرب إلى الشرق ويحد من الشرق طريق القوافل بين الشام وتدمر ثم الجبأة وهي مزرعة لنا ذات مياه وقد أوقع سيف الدولة فيها بقبائل البادية وذكرها المتسي بقصيدة يمدح بها المشار إليه حيث قال:

ومروا بالجبأة يضم فيها ... كلا الجيشين من نفع أزارا

ومن الجنوب الغنتر والجباة الماز ذكرهما ومن الغرب الشومرية والفرقنس وهي قرية من الأملاك المدورة ذكرها ياقوت الحموي فقال أنها اسم مياه قرب سنية بالشام والأصح أنها أقرب إلى حمص من سنية.

مركزها الطبيعي إن هذا الجبل بركان لا ثائر ولا منطفي لأنه لو كان ثائراً لأهنت القرى الجاورة له وقضى على الأرواح والأجساد مما يقذفه من الحجارة والحمم ولو كان منطفئاً لما صعد منه البخار الذي يراه منه الناظر من مسافة بعيدة متفرقة في الجو. ومعنوم أن الأرض كانت جسماً يكاد يكون سيالاً ينطفي قبل وجود الإنسان والحيوان والنبات على سطحها ثم برد سطحها وبقي جوفها شديد الحرارة والسبب في ثوران البركان هو هذه الحرارة والماء والمواد المعدنية الحارة في جوف الأرض فإذا ما اختلط الماء بالمواد المعدنية الحارة تمدد ورفع ما فوقه ثم يزداد الضغط عليه من الحرارة وثقل الأرض وعندما يشتد دفعه ينفجر ويقذف الحمم والصخور والبخار ويجعل الصعيد المستوي جبلاً راسياً مما يرمي به تلك الأجسام ولكن إذا فقدت المواد المعدنية وظل الماء جارياً تسخنه حرارة باطن الأرض الطبيعية البالغة ألفي درجة أو أكثر وكانت الأرض بركانية من قبل لا يصعد من أفواهاها غير البخار كما يشاهد في أي رباح هذا إذ يسع الإنسان الواقف عند فوهته صوتاً كهدير البحر ويرى البخار يتصاعد منها كبخار الماء المغني في المرجل.

فتن هذا يتبين لنا أن أبا رباح كان بركناً ثائراً في العصور الخالية ودام ثورانه رديحاً من الزمن إلى أن انتهى ما في جوفه من المواد المعدنية وبقي الماء والحرارة الطبيعية المسببان لصعود بخاره الحار.

نظرة تاريخية_ اتضح مما قدمنا أن هذه الحمة بركان نفذت مواده المعدنية الحارة منذ ألاف السنين وصارت إلى ما هي عليه اليوم عبارة عن فوهة وسط جبل يتصاعد منها بخار مائي ليس إلا. ثم جاء الأقدمون وبنوا فوق هذه الفوهة حماماً يستشفون به من الأسقام والأمراض ولكن من هؤلاء الأقدمين الذين شادوا هذا المعهد الكبير النافع؟.

سؤال تقف عنده إذ ليس لدينا من الأدلة التاريخية إلا الآثار الموجودة التي ~~تستنبط~~ منها ما يكون موافقاً للأحكام التاريخية فنقول: سكن هذه البلاد كما روى التاريخ من الأمم ذات الحضارة والمدنية والسنطة الكنعانيون والآراميون واليونانيون السنوقيون والتدمريون والرومانيون والمسنون فالأمم الأربع الأولى هم سكان البلاد الأصليين والاثنتان الباقيتان هم الفاتحون الذين قطنوها بعد الفتح فأي أمة من هذه الأمم قامت بتشييد هذا الخلل يا ترى؟ المسنون؟. لا لأن الآثار الموجودة ليست من أيامهم بل هي أقدم منهم بقرون عديدة كما أنها ليست من أعمالهم ولو كانت ذلك لدونها في كتبهم وكذلك الرومانيون لم يكون إلا أمة فتوح واستعمار لا أمة عزم ولن ولم يبرزوا إلا في بناء المعقل والحصون في الصحاري لصد صدمات المهاجمين وقلنا تنفع دولة مستعمراتها كما تفيد ممالكها الأصنية

ومع كل ذلك نرى أثراً من تلك الآثار المتباينة في طراز هندستها وقدمها على نسق الأبنية الرومانية ذات العقود والقناطر قائماً على يمين الحمة بمسافة عشرات من الخطوات وهو أحدث الآثار الباقية المتداعية الأركان.

وإذا أمعنا النظر في هذه الآثار ندرك أنه ليس للكنعانيين والآراميين من صنعة فيها وربما أقاموا في ذلك المكان حيناً من الدهر حتى داهتهم الحمم الصادرة عن جوف الأرض إبان

ثورانها فأزهقت نفوسهم ودفنت مساكنهم إذ يبصر المرء هنالك آثاراً طامسة تغشاها
الحجم والأنقاض الدالة على الثوران في غابر الزمان.

وهنا لم يبق لدينا سوى تينك الأمتين السنوقية والتدمرية ولا مناص من نسبة هذا الحمام
وما يجاوره من الأنقاض إلى إحداهما أو إلى كليتهما لأن الأمة السنوقية كانت ربة عنم
وفسفة لا يفوقها استخدام مثل هذا البخار للتنازع الصحية وكذلك الأمة التدمرية على
ما نعرفه ويعرفه الخاص والعام فإن لنا في مدينتها العظيمة شاهداً عدلاً على ما بلغت في
الصناعات والترقي في الفنون وناهيك بأعندتها الباسقة التي كانت تجري من فوقها الأنهار
فأمة مثل هذه لا يعوقها جعل بركان قريب لعاصمتها حماماً يزيل ما في الأبدان من
الأوجاع والأوصاب.

فكنا الأمتين كان هنا في حبة المعارف أفكار سامية وفي مضمار الرقي عقول نيرة ثم
دالت دولتهما وهما ينشدان:

إن آثارنا تدل علينا ... فانظروا بعدنا إلى الآثار

أي لعمر الحق أنها لأثار تدل على ما كان لهم من اليد الطولى في الفنون الجيئة
والصناعات البديعة كما أن قيام هذا الحمام ليس عن عبث أو ساقطة طبيعية بل عن عنم
صحيح وعقل رجيح فإذا حققت النظر في مبانيه الخربة وجدت أنها كانت في عهدهما
الزائل مستوفاة الشروط الطيبة داخلاً وخارجاً مما نعجز نحن أبناء القرن العشرين عن
الافتكار بمثله ولو بعد حين.

وفوق كل هذا إنني أرجح نسبة هذه الآثار إلى التدمريين لمشاكلة أنقاضها لأنقاض مدينة تدمر وقربها منها ولما يتواتر عنى السنة الأهلين في تلك الأنحاء من أن هنالك ساقية قديمة تنتهي إلى المدينة المذكورة.

نبذة صحية لو كنت طبيباً لفحصت هذا الحمام من وجهته الطبية والكيمائية فحسباً دقيقاً وعلمت ماهية بخاره ومقدار درجات حرارته ونتيجة تحنيدته ولكني لا أطيق التطفل على مواند الطب فأقتصر على ما أعلنه من شفايته للنصابين بالأمراض العصبية عامة وتيسر الأعضاء والتشنج خاصة.

وفاتنا ذكر ما هنالك من المناظر غير الفوهة التي بني عليها الحمام وفيها منفذان أحدهما يتداوى به الصم بوضع آذانهم على فيه والثاني يؤمه العقيصات من النساء لدفع الأسباب المانعة من حينهن بقعودهن القرفصاء عنده ولا أخال الأطباء يقولون بحرافة هذه الطريقة لأن البخار إذا ما دخل الأذن وبيت الولادة يطهر ما فهيمنا من الأوساخ إن كان ثمة ذلك والله أعلم .

لحة إدارية اقتصادية ليس من يتكر أن مثل هذه المعامد إذا عني بإصلاحها تأتي بدخل عظيم ولكتنا أمة قدر لها أن تكون في الأعصر الماضية حامنة لا قتدي إلى طرق غناها ولا تفر بمقدار ثروتها التي هي تحت تصرفها وفي حوزتها فترى المال الذي في جبالها متروكاً والمزوج بتربة مهنها منياً ومن جنة المهلات هذا المكان الذي نحن بصدده وهو لم يزل خراباً يباباً ينجأ إليه لصوص الأعراب وجناهم فلو لحظ بطرف الاهتمام قليلاً وأرسل إليه طيب كيسانوي يحبل بخاره ويشرح فوائده الصحية بقرير شرحاً وافياً ومهندس يخطط لاعتناره مصوراً كافياً ثم تنشأ فيه أماكن منتظمة تسر القاصدين من

المرضى وغيرهم بعد بناء مخفرة لنجد تمنع المعتدين من أهل البادية وتنزله الحكومة إلى شركة أو متمول لقاء مبلغ من المال لكانت تستفيد منه وتفيد فتشر الأمن في تلك الربوع وعساها فاعنة عن قريب وعسى أهل العنم لا يضنون علينا بما يكشف الغامض من هذه الحمامات البخارية.
فارس فياض.

مناظرة القنائي والسيرافي

من المناظرات الحبيبة بأسنوها وجمال إنشائها ما جرى بين متى بن يونس القنائي وبين أبي سعيد السيرافي تقبستها من الجزء الثالث من معجم الأدباء الذي صدر مؤخراً ليطعن القراء على أفكار الفيلسوف وأفكار نحوي وما نحن نقدم قبل إيراد المناظرة مختصر ترجمة المتناظرين وناقل كلامهما ليكون القراء على بينة مما يتنو كلامه.

أما متى بن يونس أو يونان أبو بشر وهو من أهل دير من نشأ في أسكول مرماي قرأ على قوقري وعلى روفيل وبنامين ويحيى المروزي وعلى ابن أحمد بن كريب وله تفسير من السرياني إلى العربي وإليه انتهت رئاسة المنطقين في عصره وكان نصرانياً وتوفي ببغداد يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ولحق من الكتب مقالة من مقدمات صدر بها كتاب أنالوطيقا كتاب المقاييس الشرطية وشرح كتاب إيساغوجي لفرفوروس.

وأما أبو سعيد الحسن السيرافي فيتخلص مما قاله ياقوت في معجم الأدباء أن سيراف بنيد على ساحل البحر من فارس كان أبوه مجوسياً اسمه بهزاد فسماه أبوه أبو سعيد عبد الله وقال أبو حيان في كتابه الذي ألفه تقریظ أبو عمرو بن بحر وقد ذكر جماعة من الأئمة